

## رمضان في التاريخ

كان شهر رمضان عند المسلمين على مر العصور شهر العبادة والإخلاص وعلى رأس العبادة الجهاد في سبيل الله والتضحية بالنفس في هذا الشهر المبارك، وقد شهد التاريخ الإسلامي العديد من المعارك الحاسمة التي كانت دُرّة في جبينه شهدت أقصى أنواع التضحية في الدفاع عن الأمة وحمايتها من الأعداء وخدمة الدعوة وتحطيم القوى التي تحجبها عن الناس وسوف أتحدث هنا عن المعارك في تاريخ المسلمين دون التعرض لمغازي رسول الله ﷺ حيث سيكون لبعضها موضع آخر بإذن الله.

من أشهر تلك المعارك فتح الأندلس ومعركة عين جالوت، وموقعة شقحب، ونحب أن نتذكر تلك الأحداث في هذا الشهر الكريم حيث شارك فيها رجال الأمة المخلصين.

### معركة وادي لكة (شذونة) ٢٨ رمضان ٩٢هـ:

في أواخر القرن الأول الهجري كان معظم البربر في شمال أفريقيا قد دخلوا في الإسلام وبدأوا يتطلعون للفتوح والمساهمة في نشر الإسلام ومد سلطانه على من يجاورهم من البلاد وقد تكون جيش قوامه سبعة آلاف من البربر وثلاثمائة فقط من العرب، وقد أسندت قيادته إلى طارق بن زياد، بأمر من موسى بن نصير والي إفريقيا من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، قامت السفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط بنقل الجند إلى الأندلس وعادت أدراجها، وبدأ طارق بن زياد يزحف بجنده ويلاقي التعاون والترحيب من قبل سكان الأندلس الذين كانوا يفضلون المسلمين على الحكام من بني جلدتهم، وفي هذه الأثناء أخذ (لذريق) ملك الأسبان يعد العدة لوقف المسلمين وطردهم من الأندلس، وقد بعث أحد جواسيسه ليتوغل في صفوف المسلمين ويأتيه بالأخبار وبعد فترة عاد إليه وقدم تقريراً قال فيه: (لقد جاءك من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك حطوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ليس لهم في أرضنا مهرب ولا سفن يتعلقون بها).

انزعج (لذريق) من التقرير وعباً قواته لمقاومة المسلمين، وكان قوام جيشه أربعين ألف مقاتل مما اضطر طارق بن زياد لطلب النجدة من موسى بن النصير والي إفريقيا فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل فأصبح جيش المسلمين اثني عشر ألفاً مقابل أربعين ألفاً من الأسباب الذين غرّتهم أنفسهم واستعدادهم وكانوا متأكدين من تغلبهم لدرجة أنهم قد أعدوا ما يحملون عليه من أسرى المسلمين حيث كان مع لذريق عربات تحمل الأموال وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت، وعلى جسمه حلة لؤلؤ، ومعهم عدد من الدواب لا تحمل غير الحبال لكثف الأسرى المسلمين إذ لم يشكوا في انتصارهم على المسلمين وأسرههم أو قتلهم، حيث كان جيش الأسباب أقوى تنظيماً وأكثر عدة واستعداداً، وأعلم منهم بالأرض ومسلكتها وأقرب إلى مصادر التموين وكانت كل العوامل المادية في صالحه.

تجمع الجيشان في وادي "لكه" قرب "شذونه" جنوب غرب الأندلس وبدأت المعركة في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ واستمرت ثمانية أيام أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً وقدموا فيها ثلاثة آلاف شهيداً أي قرابة ٢٥٪ من الجيش وصبروا وصابروا حتى كان النصر حليف المسلمين واختفى ملك الأسباب ولم يعثر له على أثر وتفرقت جيوشه.

كان الجيش الإسلامي في هذه المعركة يتفوق بقوة العقيدة وحب الموت وطلب الشهادة والتماسك والثبات وإعداد ما استطاعوا من قوة مادية وهذه الصفات تغلبت على القوى المادية التي كانت في ظاهرها في صالح الأسبان، وكان من نتيجة المعركة أن أصبح الطريق سالكاً للمسلمين لفتح بقية الأندلس ونشر الإسلام فيها، والملاحظ أن المسلمين كانوا يجدون التعاون والتشجيع من أهل البلاد الأصليين من الأسبان ضد حكامهم الأصليين لما يعلمونه من عدل الإسلام وسماحة المسلمين ولله در طارق بن زياد وهو يمثل تلك الجموع قائلاً:

**ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا**

**إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرًا**

**معركة عين جالوت رمضان ٦٥٨هـ:**

كان الصليبيون يعيثون فساداً في بلاد الشام منذ غزوهم لها في أواخر القرن الخامس الهجري، ثم سقطت بغداد في يد المغول على يد قائدهم السفاح هولاءكو سنة ٦٥٦هـ وواصلوا زحفهم إلى بلاد الشام وتمكنوا من الاستيلاء على معظم مدنه سنة ٦٥٦هـ إلى سنة ٦٥٨هـ وعاثوا فيها فساداً وبدأوا يخططون للهجوم منها على مصر، وكتب قائدهم إلى سلطان الممالك في مصر سيف الدين

قطز مهدياً ومتوعداً وكان مما قال: (اسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء وتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لم شكى وقد سمعتم إننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم، فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من رماحنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال..). إلى آخر الرسالة.

وقد عقد السلطان قطز اجتماعاً للأمرء والعلماء لبحث القضية واتخاذ موقف موحد من العدو الدايم، واستقر الرأي على مقابلة التهديد بالاستعداد للحرب والجهاد، وأخذ السلطان يعد الأموال والسلاح للمعركة وأراد أن يفرض ضرائب جديدة على سكان مصر بغرض الجهاد فوقف رجال الدين والعلماء من السلطان موقفاً شجاعاً، وكان على رأسهم العز بن عبد السلام حيث عارضوه في فرض الضرائب واشتروا عليه أولاً إحضار ما عنده وعند القواد الأمرء من أموال وحلي وتحويلها إلى نقود فإن لم تكفي جاز له أن يفرض على الرعية وإن لم يبدأ بنفسه فلا، امتثل قطز لرأي العلماء وكان حاكماً عادلاً، لم يبدأ بجمع المال من الرعية إلا بعد أن أخرج ما عنده وما عند الأمرء الآخرين.

وأخذ السلطان قطز في استنهاض أمراء المماليك والجند في الخروج للجهاد فوجد تكاسلاً وتأخراً عن الرغبة في الجهاد من بعض أمراء المماليك، فخاطبهم قائلاً: (يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يرغب ذلك فليرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين).

خرج السلطان قطز بجيش المسلمين من مصر في أوائل شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ وانضمت إليه بعض أجناد الشام وتوجه بهم إلى فلسطين، وكان أمامه عدوين التتار والصليبيون، واضطر قطز أن يتصل بالصليبيين ويهددهم ويطلب منهم الوقوف على الحياد، فقبلوا ذلك.

التقى المسلمون بقيادة سيف الدين قطز مع التتار بقيادة كتوبغا في عين جالوت ودارت معركة حامية استبسل فيها الفريقان، واهتز جيش المسلمين وكاد أن يهزم وعند ذلك نزل السلطان قطز من فرسه ورمى خوذته وأخذ يقود الجيش بنفسه ويصيح صيحته المشهورة (وا اسلاماه.. وا اسلاماه.. وا اسلاماه) وكان يردد: يا الله أنصر عبدك قطز، وكان مثلاً نادراً للشجاعة وسرعان ما التفت حوله القوات الإسلامية وحملوا من جديد على التتار، فأزالوهم عن مواقعهم وقتل قائدتهم (كتوبغا) وكان النصر حليف المسلمين

وعند انجلاء المعركة نزل السلطان قطز - رحمه الله - عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض تواضعاً لله وصلى ركعتي شكر لله، وفي نهاية المعركة أُحضر الخونة ممن قاتلوا في صف التتار من المسلمين وأمر قطز بقتلهم جزاء خيانتهم لأمتهم،<sup>(١)</sup> وكانت هذه الواقعة هي أول هزيمة حقيقية للمغول، حطمت عقدة كانت شائعة بأن المغول قوم لا يهزمون وأتاحت للمسلمين الفرصة لرد أنفاسهم والتغلب على المغول، حتى انتشر الإسلام بينهم فيما بعد.

موقعة شتجب رمضان ٧٠٢ هـ:

وفي أواخر شهر شعبان سنة (٧٠٢) للهجرة تقدمت جموع التتار في بلاد الشام وواصلت زحفها حتى اقتربت من دمشق، وفي هذه الأثناء كان التتار يظهرون أنهم قد دخلوا في الإسلام وكان قد تفشى بينهم حقيقة، إلا أنهم لم يتوقفوا عن الغزو والاعتداء على غيرهم من المسلمين، وقد تردد الناس في قتالهم وهم يظهرون الإسلام، فكان لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - موقفاً واضحاً، حيث دعا الناس إلى قتالهم قائلاً: حتى لو كانوا مسلمين فإنهم من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية. وتحدث عنهم قائلاً يعيبون على المسلمين ما هم فيه من المعاصي والظلم

(١) انظر تفصيلات المعرفة في: البداية والنهاية، لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٢٦. السلوك، للمغريزي، ج ١، ص ٤٢٩.

وهم بما هم أعظم منه بأضعاف مضاعفة وكان - رحمه الله - يقول للناس: إذا رأيتوني في ذلك الجانب وعلى رأسي المصحف فاقتلوني فشجع بذلك الناس، وقويت عزائمهم على محاربة المعتدين من التتار، وأخذ شيخ الإسلام - رحمه الله - يزور المعسكرات ويشجع الناس على القتال ويزيل ما في أنفسهم من شبهة قتال هؤلاء ويبين لهم أنهم معتدين ويجب ردهم حتى لو كانوا مسلمين، وكان الناس في دمشق وما جاورها في حال اضطراب لا يدرون ما يقع، وفي آخر أيام شهر شعبان وصلت الجيوش المصرية إلى قرب دمشق وعلى رأسها السلطان الناصر محمد بن قلاوون واجتمعت مع الجيوش الشامية لقتال التتار وقد طلب السلطان قلاوون من شيخ الإسلام ابن تيمية أن ينضم معه إلى الجيوش المصرية، فقال الشيخ تشجيعاً لأهل الشام: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم وحرص السلطان على القتال وبشره بالنصر، ودخل شهر رمضان والمركة لم تبدأ بعد وفي يوم المعركة أفتى ابن تيمية - رحمه الله - الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو بنفسه وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ويعلمهم أن إفطارهم أقوى على القتال وأفضل فيفطر الناس.



وقد جرت المعركة واشترك فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وكان على فرسه يصول ويجول مثلاً للعلماء الفرسان في وقت واحد يثبت قلوب من حوله بأقواله وأفعاله ، وقد كان السلطان قلاوون بنفسه من شجعان الرجال في المعركة حيث حرص في ذلك الموقف على النصر أو الشهادة وأمر بجواده فقيده حتى لا يهرب ولا تحدثه نفسه بالهرب ، وقد صدق العلماء والقادة والجند فانتصر معسكر المسلمين من أهل الشام ومصر على التتار في هذه المعركة وذلك يوم (٤) رمضان ، ومما يلفت النظر في هذه الأحداث أن مدينة دمشق كانت قريبة من مكان المعركة ، وبالتالي كانت تصلها تقارير عسكرية رسمية في كل ساعة تقريباً تبلغ في جامع دمشق على مسامع الناس عن مسيرة المعركة وتطلب منهم الدعاء بالنصر للمسلمين ، وهذه البيانات هي شبيهة بالبيانات العسكرية الحديثة ، ومما ذكر منها: (فلما كان بعد الظهر قرأت بطاقة بالجامع تتضمن أن الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ قلعة دمشق والتحرز على الأسوار).<sup>(٨١)</sup>

(١) لمزيد من التفاصيل عن موقعة شقحب، انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ج ١١ ص ٢٣ ، حوادث سنة ٧٠٢هـ.

كانت هذه المعركة التي وقعت في رمضان كاسرة لشوكة التتار وكُشِفَ عن المسلمين غمة عظيمة.

وأحداث رمضان في تاريخ المسلمين عديدة فقد كان شهر عبادة وجهاد وعمل ولذلك فإنهم سادوا الدنيا وقادوها، وكان الصيام والعبادة عوناً لهم في هذه السيادة والعزة وأحداث رمضان التاريخية كثيرة، والله المستعان.